جامعة الشهيد حمّه لخضر الوادي
معهد العلوم الإسلامية
قسم الحضارة الإسلامية

محاضرات مقياس البلاغة

سنة ثانية حضارة

2021/2020

دكتور علي زواري أحمد

مدخل إلى علم البلاغة

هذا المدخل نتكلم فيه عن العناصر التالية:

أولا – البلاغة في اللغة.

ثانيا – البلاغة في الاصطلاح.

ثالثا –نشأة علم البلاغة.

رابعا –علوم البلاغة والغرض منها.

****

أولا – البلاغة في اللغة

البلاغة في اللغة من مادة (بلغ) وتعني الوصول والانتهاء، جاء في اللسان: بلغ الشيءُ يبلغُ بلوغا وبلاغا وصل وانتهى. وبَلَغَ المكان، بُلُوغا: وصل إليه وانتهى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾. النحل:7. بلغيه: واصلين إليه. وقوله تعالى: ﴿وإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾. الأحزاب:10. بمعنى بلغت منتهى الحلقوم من شدة الخوف.

يقول يحيى بن حمزة العلوي في الطراز: «اعلم أن البلاغة في وضع اللغة، هي الوصول إلى الشيء والانتهاء إليه، فيقال بلغت البلد أبلغ بلوغا، والاسم منه البلاغة، وسمى الكلام بليغا، لأنه قد بلغ به جميع المحاسن كلها في ألفاظه ومعانيه، وهو في مصطلح النظار من علماء البيان عبارة عن الوصول إلى المعاني البديعة بالألفاظ الحسنة. وإن شئت قلت هي عبارة عن حسن السبك مع جودة المعاني، والمقصود من البلاغة هو وصول الإنسان بعبارته كنه ما فى قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل بالمعاني، وعن الإطالة المملة للخواطر». إذا فالبلاغة في اللغة: «هي حسن الكلام مع فصاحته وأدائه لغاية المعنى المراد». والتقييد بالفصاحة مهم حتى لا يتداخل تعريف البلاغة مع تعريف علم المعاني ـ وخاصة في تعريفات المتأخرين ـ والمقصود بالفصاحة أن يكون الكلام سليما؛ بمعنى سلامته من العيوب التي تُخلّ بالكلام وتؤثر

على المعنى، وقد أشار لها علماء البلاغة في حديثهم عن الفصاحة، كالتنافر والتعقيد والغرابة، ومخالفة القياس، والألفاظ المهجورة والوحشية، وغيرها.

ولهذا لا يوصف بها الكلمة إنّما يوصف بها الكلام والمتكلم، وهذا على القول الذي يقول بالتفريق بين الفصاحة والبلاغة وهو ما عليه الجمهور من المتأخرين، أمّا على القول الذي لا يفرق بينهما فإنّ الكلمة توصف بالفصاحة والبلاغة، وقد ذكرنا سابقا أن أوّل من فرق بين الفصاحة والبلاغة تفريقاً لا يزال موجوداً إلى اليوم هو ابن سنان الخفاجي (المتوفى: 466هـ) فقد قصر الفصاحة على الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا للألفاظ مع المعاني، وعلى هذا فكل كلام بليغ فصيح وليس كل كلام فصيح يكون بليغاً. وهذا بحث لا يسعه هذا المقام.

ثانيا – البلاغة في الاصطلاح

وأمّا في التعريف الاصطلاحي فإنّ البلاغة تدرجت في تعريفها بين شيئين؛ أولهما: الغاية من الكلام، والتي تتمثل في توصيل المعنى للمتلقي؛ أي التأثير في السامع بإيصال المعنى إليه في صورة حسنة، وثانيهما: خصائص الكلام ذاته، أو خواص التركيب الذي يمثل تلك الصورة الحسنة، ونبدأ في ذكر تعريفاتنا من صاحب البيان والتبيين ـ الجاحظ (المتوفى: 255هـ) ـ الذي ذكر العديد من التعريفات للبلاغة ثمّ اختار منها تعريفا، فقال: «وقال بعضهم ـ وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوّناه ـ لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك». وعرفها أبو هلال العسكري (المتوفى: 395هـ)، بقوله: «البلاغة كلّ ما تبلّغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه فى نفسه كتمكّنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن».

فكل التعريفات – تقريبا – وإنّ اختلفت ألفاظها طيلة هذه الفترة؛ أي إلى القرن الخامس أو نهاية القرن الرابع الهجريين تركز في تعريف البلاغة على المتكلم البليغ الذي يحسن توصيل المعنى من خلال كلامه للمتلقي.

ومع القرن الخامس الهجري بدأ تعريف البلاغة يرتكز على خصائص الكلام الذي من خلاله يمكن أن نصفه بالبلاغة، وبدأ هذا التغير مع عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: 471هـ)، حيث يقول: «...خصوصية في كيفية النظم، وطريقة مخصوصة في نسق الكلم بعضها على بعض».

ويقول السَّكَّاكيّ (المتوفى: 626هـ): «البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها». فقد ركز على خصائص التركيب الذي يكون به بليغا مع قصره البلاغة على علمي المعاني والبيان، وأمّا البديع فإنّه لم يدخله في البلاغة.

وجاء بعده القزويني (المتوفى: 739هـ) فعرّف البلاغة بقوله: «وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته». وتعريف القزويني هذا تناقله أغلب البلاغيين بعده وإلى زمننا هذا. والمراد بالحال: الأمر الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص مع فصاحته، أي فصاحة الكلام.

بمعنى أنّ الحال أو المقام هو الأمر الذي يدعو المتكلم إلى إيراد خصوصية في التركيب. والمقتضى ويراد به الاعتبار المناسب، هو الصورة المخصوصة التي تورد عليها العبارة. ومقتضى الحال هو إيراد الكلام على تلك الصورة. ومفاد ذلك أنّ الأمر الذي يحمل المتكلم على إيراد كلامه في صورة دون أخرى: يسمى "حالا" وإلقاء الكلام على هذه الصورة التي اقتضاها الحال يسمى "مقتضى" والبلاغة: هي مطابقة الكلام الفصيح لما يقتضيه الحال.

ثالثا – نشأة علم البلاغة

اشتهر العرب – في جاهليتهم – بفصاحة اللسان وبلاغة القول، وجمال التعبير؛ كما اشتهروا بالإيجاز والاختصار في أقوالهم. والبعد عن فضول الكلام في أحاديثهم، حتى يكون كلامهم مؤدياً للغرض المقصود من أقرب طريق، وقد كانت لهم أسواق فيها يفصحون عن ملكتهم اللغوية إبداعا ونقدا حتى بلغوا في إتقان أقوالهم، وتهذيب كلامهم. وتنسيق عباراتهم، مبلغاً جعل الجاحظ يدعي للعرب الفضل على الأمم قاطبة في الخطابة والبلاغة.

ولما جاء الإسلام ونزل القرآن بلسان عربي مبين انبهر العرب ببلاغته، وعجزوا عن مجاراتها، وسلموا بعجزهم عن أن يأتوا بمثل أقصر سورة من سور القرآن، وقد عرفوا أن بلاغة القرآن الكريم فوق مقدور البشر، وهان أمر بلاغتهم أمام بلاغته، وضعف أمر فصاحتهم أما فصاحته؛ وصدق قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾. الإسراء: 88.

فأقبل المسلمون على القرآن الكريم، يتزودون من معينه الذي لا ينضب، ويرتشفون من رحيقه العذب، ويرتوون من مائه السلسبيل، حتى رق إحساسهم، وأرهفت مشاعرهم، وسلمت أذواقهم، وعرفوا من خواص التراكيب ما لم يكونوا يعرفون، وشهدوا من مظاهر النظم وخصائصه ما لم يكونوا يشهدون!.

ومع ما ذكرنا فإنّه – كذلك – بانتشار الإسلام واختلاط العرب بالعجم وظهور اللحن دفع بعجلة البحث البلاغي ما جعل وتيرة البحث والتدوين تتحرك للحفاظ على لغة القرآن الكريم، ومن هنا يمكن القول بأنّ البلاغة مرت بأربع محطات رئيسية قديما وحديثا، هي:

1 . البحث في الإعجاز القرآني:

عندما نرجع لتاريخ نشأة البلاغة نجد أن السبب الأساس في ذلك هو القرآن الكريم، وذلك عندما انبرى علماء الأمة للدفاع عنه، وحمايته من اللحن والانحراف، وبيان وجوه إعجازه، وتجلية جوانب الاختلاف بينه وبين المعهود من كلام العرب الذي خلدته أشعارهم، وبذلك اتجه البلغاء والعلماء لتأليف المؤلفات والكتب والمصنفات الكفيلة بتجلية أوجه البلاغة القرآنية قصد بيان إعجاز القرآن، ونذكر من ذلك:

معاني القرآن للفراء (المتوفى: 207هـ) ومجاز القرآن لأبي عبيدة (المتوفى: 210هـ) ونظم القرآن للجاحظ (المتوفى: 255هـ)، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (المتوفى: 276هـ)، والنكت في إعجاز القرآن للرماني (المتوفى: 384هـ)، وإعجاز القرآن للباقلاني (المتوفى: 403هـ) وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (المتوفى: 471هـ)، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي (المتوفى: 606هـ) ثم مفتاح العلوم للسكاكي (المتوفى: 626هـ)، والتبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن لابن الزملكاني (المتوفى: 651هـ)، وتلخيص المفتاح للخطيب القزويني (المتوفى: 739هـ) والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي (المتوفى: 749هـ)، والفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان لابن القيم (المتوفى: 751هـ)، وغير ذلك من المؤلفات البلاغية التي كان منطلقها الأساس هو الإعجاز القرآني وجعلت من البلاغة مادة خصبة لدراستها وبيان وجه إعجاز القرآن وعظمته.

وبهذه المؤلفات في إعجاز القرآن ظهرت المباحث الكثيرة المختصة بالفنون البلاغية التي استخلصوها من القرآن الكريم، مثل: الخبر والإنشاء، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والشرط

والجزاء، والقَصْر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، وغيرها من أساليب المعاني، وفنون البيان، وألوان البديع، ما يدل على العلاقة التلازمية بين فنون البلاغة المختلفة وقضية الإعجاز القرآني.

يقول الرافعي في بيان وجه الارتباط بين الفنون البلاغية والتصنيف في الإعجاز القرآني: «وممن ألَّفوا في الإعجاز أيضاً على وجوه مختلفة من البلاغة والكلام وما إليهما: الإمام الخطابي (المتوفى: 388هـ) وفخر الدين الرازي (المتوفى: 606هـ) والأديب البليغ ابن أبي الإصبع (المتوفى: 654هـ) والزملكاني (المتوفى: 727هـ) وهي كتب بعضها من بعض». ثم يقول: «صنف فيه جماعة من العلماء المتأخرين : منهم الإمام الرازي (المتوفى: 606هـ) فقد لخص كتابي (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز) للجُرجاني، واستخرج منهما كتابه في إعجاز القرآن وهو كتاب معروف، أحسن في نسقه وتبويبه، ثم الأديب ابن أبي الإصبع (المتوفى: 654هـ) فقد صنف كتاب (بدائع القرآن) أورد فيه نحو مائة نوع من معاني البلاغة وشرحها، واستخرج أمثلتها من القرآن، ثم ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ) وقد أشرنا في غير هذا الموضع إلى تصنيفه "كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان " وهو في معناه بتلك الكتب كلها. هذا إلى أن كل ما كتبه المتقدمون في علوم البلاغة وإعجاز القرآن: كالرماني، والواسطي، والعسكري، والجرجاني، وغيرهم؛ فإنما يَنحون به هذا النحوَ من انتزاع أمثلته في القرآن، والإضافة في أبوابها، ثم ما يداخل هذه الأبواب من فنون الكلام شعرِهِ ونثرِه، ومن أجل ذلك قلنا آنفاً: إن القرآن كان علم البلاغة عند العرب، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم».

ونجد من المعاصرين من اهتم بهذه المسألة وألف فيها مصنفا خاصا هدفه الحديث عن بيان مدى إثراء تلك المصنفات للبلاغة القرآنية ما أدى لتدوين البلاغة العربية عموما، من ذلك كتاب: قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية لعبد العزيز عبد المعطي عرفة، يقول فيه عن جهود أبي عبيدة بحكم أنها من أوائل الجهود التي عرفت في هذا المجال : «وكانت محاولة أبي عبيدة ناجحة إذ تمكن من الكشف عن بعض المسائل البلاغية، وتعتبر مهمة في تكوين البلاغة التعليمية، لأنها تمثل الطور الأول في نشأتها».

ويقول بعدما بين الفنون البلاغية التي تعرض لها كل من أبي عبيدة والفراء في بيان أوجه الإعجاز القرآني: «هذه هي الألوان البلاغية التي أشار إليها كل من أبي عبيدة والفراء والتي

دفعتها قضية الإعجاز دفعا وكان الغرض منها فهم القرآن الكريم عن طريق تربية الذوق الأدبي..».

وهكذا سار مع باقي من ألف في الإعجاز القرآني وخدم البلاغة تماشيا مع عصورهم، مثل: الجاحظ، وابن قتيبة، وابن المعتز، والرماني، وأبي هلال العسكري، وعبد القاهر الجرجاني، والزمخشري الذي طبق في كشافه ما قال به الجرجاني.

ومع كل هذا الاهتمام بالبلاغة القرآنية نستطيع القول بأن الهدف لم يكن من أجل استخراج فنون البلاغة القرآنية وتنظيميها وترتيبها؛ بل كان المقصد هو بيان الإعجاز والدفاع عن القرآن ولغته عن طريق فنون البلاغة المختلفة، لأنها تخدم الإعجاز أولا وبدرجة رئيسية، ولم يكن في صلب منهجهم التأليف في البلاغة ذاتها، ولكن استعملوها كآلة لإظهار وجوه الإعجاز، وعناوين المصنفات التي رأيناها تدل على ذلك، ومع ذلك فقد صارت تلك الجهود مادة خاما للفنون البلاغة بعد ذلك، وأصبح كل من جاء بعدها عالة عليها، ولا يمكنه الاستغناء عنها، وبهذا تبلورت فكرة المصنفات المختلفة المتخصصة في علوم البلاغة، وهذا ما سنتحدث عنه في العنصر الموالي.

2 – البحث النقدي والأدبي

وللتنبيه فإنّه يستحسن أن نشير إلى الجانب النقدي والأدبي الذي كان له أثر كذلك على نشأة البلاغة وتطورها وخاصة من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري؛ وإن كان بداية يغلب عليه الطابع الذوقي والشفهي إلا أنه تحول تدريجيا مع بداية التدوين إلى العلمية والكتابة، فما أن أتى القرن الرابع الهجري إلا وقد نمت البلاغة العربية نمواً جعل النقاد من الأدباء يأخذون في تطبيقها على النصوص الأدبية، ويأخذ النقد الأدبي دوره من خلال البلاغة العربية الأصيلة، فتؤتي ثمارها، وتطبق تطبيقاً عملياً في كل من "عيار الشعر"، لابن طباطبا (المتوفى: 322هـ) و"الموازنة بين أبي تمام والبحتري" للآمدي، (المتوفى: 371هـ) و"الوساطة بين المتنبي وخصومه" لعلي بن عبد العزيز الجرجاني (المتوفى: 392هـ.) ولكن فريقاً آخر من الأدباء والشعراء يتجردون للبحث في البلاغة، مهيئين بذلك لانفصال البلاغة عن النقد الأدبي، ويتجهون بها وجهة علمية بحتة. وإن كانوا قد اتفقوا على الإكثار من التمثيل بتراث هائل من الشعر العربي الجاهلي والإسلامي، ومن الأحاديث النبوية الشريفة، ومن كلام الفصحاء،

وخطبهم وأمثالهم وحكمهم، إلى جانب ما أوردوه من آيات القرآن الكريم، فنجد "سر الصناعتين" لأبي هلال العسكري (المتوفى: 395هـ) و"العمدة في صناعة الشعر ونقده" لابن رشيق القيرواني (المتوفى: 463هـ). و"سر الفصاحة" لابن سنان الخفاجي (المتوفى: 466هـ.) ولأنّ البحث البلاغي في هذه المرحلة الخصبة الغنية بتحليل النصوص الأدبية ونقدها قد تناوله الأدباء والشعراء من النقاد، فإن هذه المرحلة جديرة بأن تسمى "مرحلة البحث البلاغي في ظلال الأدب".

بيد أن هذه المرحلة من مراحل البحث في البلاغة، لم تصل إلى الدرجة التي يمكن أن يقال عنها إنها قد وفت النص الأدبي حقه، ذلك لأن البلاغة فيها قد طبقت في حدود ما توصل إليه البلاغيون آنئذ، ولم تكن البلاغة العربية قد اكتمل نظامها بعد، بل لم تكن قد تعمقت في الغوص إلى معاني النص الأدبي، واستخراج دررها الغالية من بحارها العميقة. وهنا يأتي عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: 471هـ). بعقليته النادرة، وبصيرته الواعية، وأسلوبه الرشيق، فيتحف البلاغة العربية بكتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، متعمقاً في فهم فكرة النظم التي تلقفها من سابقيه، ويجعلها نظرية يدير عليها علم البلاغة الذي يقوم على المعاني المستوحاة من نظم الكلام وعلى الصورة المعبرة عما في نفس المتكلم، والموضحة لما يقصد إليه من أغراض، متضمناً قيماً جمالية نابعة من جمال المعاني قبل أن تكون زينة للألفاظ، فيقيم بهذا صرح البلاغة العربية على أسس متينة.

3 . البحث البلاغي المتخصص:

لقد كان للقرآن الكريم أثره الواضح في البحث البلاغي المتخصص؛ وذلك من وجهتين:

الأولى: أن ما أُلِف في البلاغة قديما وحديثا، حوى جهود العلماء في استقصاء فنونها وعلومها التي كان العديد منها –كما ذكرنا– مستخلصا من القرآن الكريم. وهي بحوث كثيرة نذكر بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر:

بداية من كتاب البيان والتبيين للجاحظ (المتوفى: 255هـ) وبعده البديع لعبد الله بن محمد المعتز بالله (المتوفى: 296هـ)، وديوان المعاني للعسكري (المتوفى: نحو 395هـ)، وتلخيص البيان في مجازات القرآن، والمجازات النبوية؛ للشريف الرضي (المتوفى: 406هـ)، وسحر البلاغة وسر البراعة للثعالبي (المتوفى: 429هـ)، وسر الفصاحة للخفاجي (المتوفى: 466هـ)،

وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (المتوفى: 471هـ)، وأساس البلاغة للزمخشري (المتوفى: 538هـ)، ومفتاح العلوم للسكاكي (المتوفى: 626هـ)، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير الجزري (المتوفى: 637هـ) ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني (المتوفى: 684هـ)، والإيضاح في علوم البلاغة، وعقود الجمان في علم المعاني والبيان كلاهما للقزويني، (المتوفى: 739هـ)، والطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلويّ (المتوفى: 745هـ)،

ومن الكتب المتأخرة، أنوار الربيع في أنواع البديع للحسيني (المتوفى: 1119هـ)، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للهاشمي (المتوفى: 1362هـ)، وعلوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» للمراغي (المتوفى: 1371هـ)و، كتاب في البلاغة العربية (علم المعاني والبيان والبديع) لعبد العزيز عتيق (المتوفى: 1396 هـ)، وكتاب البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (المتوفى: 1425هـ)، وغيرها من الكتب.

فعندما نلقي نظرة على تلك المؤلفات المتخصصة في علوم البلاغة؛ ونتبع تسلسلها الزمني نجدها، تضمنت الحديث عن المباحث البلاغية، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه على صبغتها الحالية المشكلة لعلوم البلاغة الثلاث، فجمعت شتاتها، واستقرت على تسمياتها، ورتبت علومها، وفرعت فنونها، وبوبت أقسامها، وبينت حدودها وتعريفاتها، ونجدها في كل ذلك احتوت كل المباحث التي استخلصت من القرآن الكريم.

الثانية: أنّ القرآن الكريم كان مادة مُثلى للتدليل على الكثير من المباحث البلاغية والاستشهاد لها، وبيان أغراضها ونكتها، حتى أضحت معروفة ومعلومة ومتداولة، وتتلقاها الأجيال خلفا عن سلف.

فالناظر للفنون البلاغية من خلال تلك المؤلفات البلاغية المتخصصة يلحظ اهتمامها بالاستشهاد لها بمختلف الشواهد من الشعر والنثر والقرآن وغير ذلك، فكانت كتب الإعجاز المختلفة – التي تحدثنا عنها وغيرها – مصدرا من مصادر البلاغة؛ من حيث أخذ الفنون عنها أو الاستشهاد بها، كما أنّ الشعر مصدر أساسي لفنونها – أيضا – ولذا لا نجدها تجعل من اهتماماتها الأولية البلاغة القرآنية، وإن كانت من صلب مادتها ومن أهم مصادرها؛ بل اهتمامها منصب حول علوم البلاغة وما تحتويه من فنون مختلفة، فذاك هو الغرض الأساس، وعليه أصبحت المادة القرآنية فيها كجزء من تلك الشواهد وكمصدر من المصادر، حسب ما اقتضاه

كل فن، وتختلف من مصنف لآخر، فهناك المكثر، وهناك المقل في ذكر الشواهد القرآنية، وبهذا لا تجد في بعض فنون البلاغة إلا الشواهد الشعرية أو النثرية، وبالتالي يظهر مدى أثر القرآن الكريم في نشأة الدرس البلاغي وتطوره من خلال ما عرضنا، ولا يمكن أن نذكر نشأة البلاغة دون الإشارة للقرآن الكريم.

4 . كتب تفسير القرآن العظيم

كما سبق وأن أشرنا بأنّ البلاغة من العلوم التي نشأت وترعرعت في ظلال الدراسات القرآنية لبيان وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وأول شيء؛ وأهم شيء يسعى له المفسر قبل تفسيره هو البحث عن دقائق المعاني، لأنّ وراء كل كلمة أو آية في القرآن الكريم معنى مستفاد، هو الركيزة في بناء الفهم المراد من كلام الله تعالى، وما ينتج عنه من إعجاز ودلائل وأحكام وغيرها، لذا كانت فنون البلاغة ركيزة من ركائز علم التفسير لاهتمامها بالمعنى، الذي هو المراد تبليغه وتوصيله للمخاطب، يقول ابن الأثير: «والكلام فيه وإن تضمن بلاغة، فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، وإذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه؛ لأنه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، والمعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها».

ومن هنا نرى بأن المفسرين منذ بداية التدوين في علم التفسير وهم يركزون وبعناية فائقة على الجانب البلاغي، لأنّهم يدركون مدى الصلة الكبيرة بين علم التفسير وعلوم البلاغة، فالمفسر حتى يستطيع القيام بهذا الدور كان لازما عليه أن يحيط بفنون البلاغة ووجوهها المختلفة ليكشف عن أسرار الإعجاز، ويتمكن من توجيه الآيات وفق ما يمكن أن يفهم عنه كلام الله تعالى، فكانت فنون البلاغة في مقدمة العلوم التي لا يُسْتَغْنى عنها في تفسير كتاب الله تعالى، وإدراك فصاحته وبلاغته، يقول الزمخشري في تفسيره الكشاف: «ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة».

وقد كُتِبَت العديد من الرسائل العلمية في دراسة البحث البلاغي عند المفسرين، من ذلك: البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري لرابح دوب، وهي رسالة دكتوراه من

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسطنطينة، سنة : 1994، وأيضا رسالة عن: جهود المفسرين في البحث البلاغي (أبو عبيدة – الفراء – ابن قتيبة) لمنيرة محمد فاعور ، وهي رسالة لنيل درجة الماجستير، بدمشق سنة 1996، وغيرهما كثير، سواء أكانت عامة عند المفسرين، أو خاصة ببعضهم، ما ينبئ على الدور الكبير الذي قام به المفسرون في الإسهام في خدمة الدرس البلاغي.

ومن أهم كتب التفسير التي اهتمت واعتنت بالجانب البلاغي، تفسير الوسيط في تفسير القرآن المجيد لأبي الحسن الواحدي (المتوفى: 468هـ)، وتفسير الكشاف المسمى: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم جار الله الزمخشري (المتوفى: 538هـ) ، فقد حوى الكثير من الفنون البلاغية، وساقها مع التفسير بكل روعة ودقة وجمال، قصد الاستعانة بها على فهم كلام المولى عز وجل .

وكذلك تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد ابن عطية الأندلسي (المتوفى: 542هـ)، والتفسير الكبير، والمسمى –أيضا– مفاتح الغيب لفخر الدين الرازي (المتوفى: 606هـ) ، وتفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبي سعيد محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: 685هـ) ، وتفسير التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: 741هـ).

ومن أهم التفاسير –أيضا– التي أولت الجانب البلاغي بالحديث الكثير؛ تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (المتوفى: 745هـ)؛ الذي تكلم فيه طويلا عن الجانب البلاغي وأعطاه عناية كبيرة، وكذلك تفسير التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد لأبي العباس البسيلي التونسي (المتوفى: 830هـ)، وتفسير أبي السعود (المتوفى: 982هـ)؛ المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وتفسير فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني (المتوفى: 1250هـ)، وتفسير محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي (المتوفى: 1332هـ)، ولا يمكن أن ننسى أو نغفل عن الموسوعة الضخمة المتمثلة في تفسير التحرير والتنوير، المسمى: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ).

فكل هذه التفاسير كان لها القسط الأكبر من العناية بالفنون البلاغية والتركيز عليها، وغيرها ممن اهتم بالجانب البلاغي وجعله من صميم مادة تفسيره، مع العلم أن منهجية العرض

في تلك التفاسير تماشت مع تفسير الآيات، فكانت البلاغة مدرجة ضمن التفسير ومختلطة معه، وهي الطريقة القديمة المعهودة عند المفسرين، ولكن بعض المتأخرين صار على النهج الموضوعي في التفسير، فأفرد البلاغة بعنصر مستقل أثناء تفسير الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد، ومن هؤلاء على سبيل المثال محمد علي الصابوني في تفسيره "صفوة التفاسير".

رابعا – علوم البلاغة والغرض منها

لقد انتهت علوم البلاغة في تقسيماتها إلى أبي يعقوب السكاكي تلميذ الحاتمي، بعد أن أخذ ما وصل إليه من إبداع عبد القاهر الجرجاني من تقسيمات وتفريعات للبلاغة، فلمح السكاكي ذلك وقام في كتابه "المفتاح" بنقد ما ذهب له الجرجاني واستفاد منه وزاد عليه، وجعله أقساما، وخص البلاغة بالقسم الثالث منه، وقسمها إلى ثلاثة أقسام: المعاني –البيان– البديع. وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل علم منها بالتفصيل، وقد جرى على ترتيبه لهذه المباحث من أتى بعده من المتأخرين، فكان عمدتهم في هذا الترتيب، وبذلك تنتهي مراحل التأليف والابتكار في بحوث البلاغة وتدوينها تدوينا كاملا.

وعلى هذا فإنّ علوم البلاغة، هي:

العلم الأول: ما يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى الذي يريده المتكلم لإيصاله إلى ذهن السامع، ويسمى «علم المعاني» .

العلم الثاني: ما يحترز به عن التعقيد المعنوي . أي عن أن يكون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد، ويسمى «علم البيان».

العلم الثالث: ما يراد به تحسين الكلام ويسمى (علم البديع) فعلم البديع تابع لهما إذ بهما يعرف التحسين الذاتي، وبه يعرف التحسين العرضي.

والبلاغة بفنونها الثلاثة "المعاني – البيان – البديع" وسائر الفنون الأدبية التي نبه عليها أدباء العرب، وكذلك سائر المذاهب الأدبية المستوردة من الشعوب غير العربية ليست إلا بحوثا وتتبعات لاكتشاف عناصر الجمال الأدبي في الكلام، ومحاولات لتحديد معالمها، ووضع بعض قواعدها، دون أن تستطيع كل هذه البحوث والدراسات جمع كل عناصر الجمال الأدبي في الكلام، أو استقصاءها، واكتشاف كل وجوهها. فالجمال كثيرا ما يتذوقه الحس الظاهر والشعور

الباطن، دون أن يستطيع الفكر تحديد كل العناصر التي امتلكت استحسانه وإعجابه، وإن عرف منها الشيء الكثير، واستطاع أن يفرزه ويحدد معالمه.

إنّ آفاق الجمال أوسع من أن تحدد أو تحصر بأطر مقاييس، ولكن يمكن اكتشاف بعض عناصر الجمال، وكلياته العامة، وطائفة من ملامحه. والغرض من عرض الباحثين لفنون البلاغة وعلومها، وللمذاهب الأدبية المختلفة، وللأمثلة الأدبية الراقية المقرونة بالتحليل الأدبي والبلاغي، تربية القدرة على الإحساس بعناصر الجمال الأدبي في الكلام الأدبي الرفيع، وتربية القدرة على فهم النصوص الجميلة الراقية، والقدرة على محاكاة بعضها في إنشاء الكلام، والقدرة على الإبداع والابتكار لدى الذين يملكون في فطرهم الاستعداد لشيء من ذلك.

وملخص ذلك فإنّ الغرض من علوم البلاغة تحقيق أربع غايات، وهي:

الغاية الأولى: حسن تفهم وتدبر النصوص البليغة الرفيعة من القرآن المجيد، وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلام أساطين البلغاء والشعراء.

الغاية الثانية: اكتساب القدرة على نقد النصوص المشتملة على ما هو سمين وغث من الكلام، وبيان ما في النصوص التي ينقدها من محاسن وعيوب بلاغية وأدبية.

الغاية الثالثة: اكتساب الذوق الرفيع الذي يحس بمواطن البلاغة والجمال الأدبي.

الغاية الرابعة: الاهتداء بهدي ما أعطته الدراسة، لدى إنشاء الكلام، وكتابة المقالات والخطب والرسائل والمؤلفات، واكتساب الدافع الذاتي لتحري ما يراه الأبلغ والأجمل فيما ينشىء من بيان.

نشأة علم المعاني وتطوره

نتناول في هذا المحور العناصر التالية:

أولا – علم المعاني في اللغة.

ثانيا – علم المعاني في الاصطلاح.

ثالثا – نشأة وتطور علم المعاني.

رابعا – مباحث علم المعاني.

****

أولا – علم المعاني في اللغة.

علم المعاني كلّه يبحث في إفادة المعنى؛ أي الدلالة، وبالتالي يهمنا تعريف لفظ "المعاني"، فهي في اللغة جمع معنى، وهو من مادة (ع ن ي) ويراد منه المقصود بالشيء؛ أي: مضمون، فحوى، دلالة، ما يدلّ عليه لفظ. يقول أحمد بن فارس: «والذي يدل عليه قياس اللغة أن المعنى هو القصد الذي يبرز ويظهر في الشيء إذا بحث عنه. يقال: هذا معنى الكلام ومعنى الشعر؛ أي الذي يبرز من مكنون ما تضمنه اللفظ. والدليل على القياس قول العرب: لم تَعْنِ هذه الأرض شيئا ولم تَعْنُ أيضا، وذلك إذا لم تنبت، فكأنها إذ كانت كذا فإنّها لم تفد شيئا ولم تبرز خيرا».

وفي اصطلاح البيانيين – هو التِّعبير باللفظ عمَّا يتَصوَّره الذَهن أو هو الصورة الذهنية، من حيثُ تقصدُ من اللفظ. جاء في التعريفات للجرجاني: «المعاني: هي الصورة الذهنية؛ من حيث إنه وضع بإزائها الألفاظ والصور الحاصلة في العقل».

فأيّ تصوُّر يرتبط باللَّفظ في الذِّهن ارتباطا عُرفيًّا بالمطابقة فهو المعنى الحقيقيّ أو ذهنيًّا بالتَّضمُّن أو اللّازم فهو المعنى الضِّمنيّ، أو مجازيًّا بواسطة الاستعارة فهو المعنى المجازيّ، أو طبيعيًّا بحكاية الصوت للمعنى فهو المعنى الطبيعيّ.

وأمّا علم المعاني كمركب لغوي، فهو علم الدِّلالة، وهو مختصّ بدرس معاني الألفاظ والعبارات والتراكيب. وهذا التعريف اللغوي لعلم المعاني يتوافق والتعريف الاصطلاحي.

ثانيا – علم المعاني في الاصطلاح.

التعريفات الاصطلاحية لعلم المعاني كثيرة ـ منذ نشأته وإلى اليوم ـ وعندما ننظر فيها نجدها متقاربة، وأنّها ركّزت على شيئين، هما: تركيب الكلام، بدراسة المفردة في مختلف أحوالها، وعلى وضع الكلام في المقام المناسب؛ أي مراعاته لمقتضى الحال.

فالسكاكيّ الذي انتهت إليه علوم البلاغة، ومنها علم المعاني يعرفه بقوله: «اعلم أن المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره». فنجد تعريفه ارتكز على خواص التركيب التي تؤدي الإفادة، بمعنى التركيب السليم الذي عليه البلغاء، والمُوصل للمعنى عند السماع في أحسن صورة يُراعى فيها المقام وما يتطلبه من خطاب.

وعند القزويني: «وهو علم يعرف به أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال». وقريب منه ما ذكره صاحب الطراز، حيث يقول: «علم المعانى هو العلم بأحوال الألفاظ العربية المطابقة لمقتضى الحال من الأمور الإنشائية والأمور الطلبية وغيرهما». والمعاصرون تقريبا جميعهم على هذا الأصل مع الاختلاف في صياغة التعريف لكن المضمون واحد، ففي بغية الإيضاح للصعيدي: «هو علم يُعرَف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال». ونفس الشيء عند حبنكة الميداني، حيث يقول في كتابه البلاغة العربية: «هو علم يعرف به أحوال الكلام العربي التي تهدي العالم بها إلى اختيار ما يطابق منها مقتضى أحوال المخاطبين، رجاء أن يكون ما ينشىء من كلام أدبي بليغا».

والمراد بأحوال اللفظ أو الكلام ما يشمل أحوال الجملة وأجزائها؛ فأحوال الجملة: كالفصل, والوصل، والإيجاز، والإطناب، والمساواة. وأحوال أجزائها: كأحوال المسند إليه، وأحوال المسند، وأحوال متعلقات الفعل؛ وهذه الأحوال هي التي يقتضيها الحال وهي الأمور التي تعرض لها من التقديم والتأخير والحذف والذكر والتعريف والتنكير والإظهار والإضمار، وغير ذلك من الخصائص والاعتبارات التي يقتضيها الحال في اللفظ، فهي بعينها مقتضى الحال.

مثال على ذلك قولُه تعالى على لسان الجنّ: ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، فإنَّ شطر الكلام الأول قبل (أمْ) يختلف عن شطره بعدها؛ وذلك أنَّ مقتضى الحال يختلف فاختلف الشطران، فالشطر الأُول فيه فعل الإرادة مبنيٌّ للمجهول (أُرِيد)، وهو ما يقتضيه جهلهم بالشيء المراد، ولقصور علمهم في ذلك، والشطر الثاني فيها فعل الإرادة مبنيٌّ للمعلوم (أَرَادَ)، والحالُ الداعي لذلك هو علم الله المحيط بالمراد فناسبه البناء

للمعلوم، وأيضا نسبة الخير (الرشد) إليه سبحانَه في الثانية وثبوت نفيها عنه في الأولى؛ من كل ذلك ناسب الأولى البناء للمجهول وناسب الثانية البناء للمعلوم.

مثال آخر في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾. نلحظ في هذه الآية الإطناب في الإجابة من طرف نبي الله موسى بدل الإيجاز، فقد كان السؤال محددا، والله يعلم ما يحمل موسى بيده، ولذا يقتضي الإجابة موجزة بكلمة واحدة، فيقول: عصاي. لكنّه استرسل في الكلام؛ وذلك أنّ مقتضى الحال يتطلب ذلك لأمور، منها:

ـ إمّا أنّه استشعر الأنس في مخاطبته للباري عز وجل، فالمقام مقام تشريف وهو يقتضي البسط والإطالة في الكلام، إذ هو مقام حديث العبد مع خالقه، والحبيب مع حبيبه. جاء في الكشاف: «وقالوا: إنّما أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد في إكرامه، وقالوا: انقطع لسانه بالهيبة فأجمل».

ـ أو أجاب عمّا يتوقع من أسئلة بعدها؛ كالسؤال ماذا تفعل بها؟ وشبهه، فأجاب عمّا هو متوقع، ولذلك فصّل ثمّ أجمل حتّى إذا استزاده بيانًا زاده. قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل، لأنه لما قال: "وما تلك بيمينك يا موسى" ذكر معاني أربعة؛ وهي: إضافة العصا إليه، وكان حقه أن يقول عصا».

ـ أو أنّه من باب الإفادة في المعنى، وهو من فن التلفيف في علم البديع؛ وهو أن يقصد المتكلم التعبير عن معنى خطر له أو سُئل عنه، فيلف معه معنى آخر يلازم كلمة المعنى الذي سئل عنه.

ـ أو أنّ موسى عليه الصلاة والسلام أدرك بمقتضى الحال الذي كان فيه أنّ السؤال لم يكن عن العصا ذاتها؛ بل عمّا وراءها، فاقتضى المقام أن يجيب بشيء من الإطناب ولم يُطل فيه تأدبا مع الله عز وجل؛ ففصل في شيئين: (أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)، ثمّ أجمل: (وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى). يقول ابن عاشور: «فظاهر الاستفهام أنه سؤال عن شيء أشير إليه، وبينت الإشارة بالظرف المستقر وهو قوله: (بِيَمِينِكَ)، ووقع الظرف حالا من اسم الإشارة، أي ما تلك حال كونها بيمينك؟ ففي هذا إيماء إلى أن السؤال عن أمر غريب في شأنها، ولذلك أجاب موسى عن هذا الاستفهام ببيان ماهية المسؤول عنه جريا على الظاهر، وببيان بعض

منافعها استقصاء لمراد السائل أن يكون قد سأل عن وجه اتخاذه العصا بيده لأن شأن الواضحات أن لا يسأل عنها إلا والسائل يريد من سؤاله أمرا غير ظاهر».

ولذلك فعلم المعاني يدور حول تحليل الجملة المفيدة إلى عناصرها، والبحث في أحوال كل عنصر منها في اللسان العربي، ومواقع ذكره وحذفه، وتقديمه وتأخيره، ومواقع التعريف والتنكير، والإطلاق والتقييد، والتأكيد وعدمه، ومواقع القصر وعدمه، وحول اقتران الجمل المفيدة ببعضها، بعطف أو بغير عطف، ومواقع كل منهما ومقتضياته، وحول كون الجملة مساوية في ألفاظها لمعناها، أو أقل منه، أو زائدا عليه، ونحو ذلك. ونجد بعض التعريفات المتأخرة أصبغت عليه الصبغة العلمية أو بالأحرى المعيارية، من ذلك ما جاء في جواهر البلاغة: «علم المعاني أصولٌ وقوَاعِد يُعرف بها أحوال الكلام العربي التي يكون بها مُطابقاً لِمقتضى الحال، بحيث يكون وفق الغَرَضِ الذيِ سيقَ له».

فنرى بأنّ هذا التعريف مثل سابقاته من حيث المضمون في مراعاة أحوال اللفظ ومقتضى الحال، إلا أنّه ركز على الجانب المعياري (القواعد والأصول) في تقييده لهذا العلم؛ أي تقييده بالمسائل الكلية لهذا العلم، بمعنى أنّه ليس مجرد معرفة خواص التركيب وأحوال اللفظ ـ فتلك ولا ريب لها قواعدها وأصولها وهي المعنية الأولى بالتركيب ـ ولكن هناك الأساليب الكلامية التي كان عليها نسيج الكلام العربي، وعلى منوالها أَلَّفَ العربيُّ كلامه، كقولهم: المتردد والمُنكِر يُلقى إليهما الكلام مؤكدًا، وخالي الذهن يُلقى إليه الكلام خلوا من التأكيد، والذكي يُلقى إليه الكلام موجزًا، والغبيّ يُلقى إليه الكلام مطنبًا, وأنّ العرب تُوجز إذ شكرت أو اعتذرت. وتُطنب إذا مدحت. وأنّ الجملة الاسمية تأتي لإفادة الثبات بمقتضى المقام، فمتى وَضع المتكلم تلك القواعد نصب عينيه لم يزغ عن أساليبهم ونهج تراكيبهم، وجاء كلامه مطابقا لمقتضى الحال التي يورد فيها، فالشكر حال يقتضي الإيجاز وإيراد الكلام على هذه الصورة مطابقة لمقتضى الحال.

وملخص القول أنّه ولا بد من سوق الكلام وفق مقتضى الحال، ومناسبة المقال، وكل إخلال بهذا الجانب إخلال بالصياغة الفنية، وتهوين من قدرها وقيمتها، والذكيّ من النّاس من يضع الشيء في موضعه، ويخاطب الآخرين على قدر عقولهم ومقاماتهم.

ثالثا – نشأة وتطور علم المعاني

وبعد أن عَرَّفْنا علم المعاني نحتاج إلى اللمحة التاريخية على هذا العلم، والمتعلقة بنشأته وتطوره، ولا ريب أن علوم البلاغة أخذت زمنا حتى تشكلت بصبغتها التي هي عليها اليوم، وكل علم فيها كان له من المراحل ما كان لغيره من علومها.

فعلم المعاني هو أحد علوم البلاغة الثلاثة المعروفة؛ المعاني والبيان والبديع. وقد كانت البلاغة العربية في أوّل الأمر وحدة شاملة لمباحث هذه العلوم بلا تحديد أو تمييز. وكُتب المتقدمين من علماء العربية خير شاهد على ذلك، ففيها تتجاور مسائل علوم البلاغة، ويختلط بعضها ببعض من غير فصل بينها. وشيئا فشيئا أخذ المشتغلون بالبلاغة العربية ينحون بها منحى التخصص والاستقلال، كما أخذت مسائل كل فن بلاغيّ تتبلور وتتلاحق واحدة بعد الأخرى. وظل الأمر كذلك حتى جاء عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري (المتوفى:471هـ) ووضع نظرية علم المعاني في كتابه "دلائل الإعجاز" ونظرية علم البيان في كتابه "أسرار البلاغة"، كما وضع الجاحظ من قبله أصول البيان العربي، وابن المعتز أساس علم البديع، فعبد القاهر الجرجاني بدراسته للمعنى النحوي ومعنى المعنى النحوي، أي المعنى ومعنى المعنى، تعمق في نظم التركيب، فكان هو الحلقة الأهم بعد سابقيه في وضع أصول علمي المعاني والبيان ومؤسسهما في العربية، وقد جعل من مباحث كلا العلمين وحدة يمكن النظر فيها نظرة شاملة.

والعجيب أنّه لم يحدث بعده تغيير يذكر في هذين العلمين، لأنّه استطاع أن يستنبط من ملاحظات البلاغيين قبله كل القواعد البلاغية فيهما، وكان ذلك إيذانا بأن تتحول تلك القواعد من بعده إلى قوانين جامدة. وقد فُتِن البلاغيون بعمله فراحوا يرددون كلامه ويقفون عنده لا يتجاوزونه إلى عمق أو ابتكار، كأنما البحث في البلاغة قد انتهى بعبد القاهر الجرجاني. وذلك أنَّ جهود البلاغيين من بعده انحصرت في جمع قواعد علوم البلاغة التي وضعها، وفي ترتيب أبوابها، واختصارها. وكان هذا الاختصار يصل أحيانا من الغموض والصعوبة إلى حيث يحتاج إلى شرح يوضح غامضه، ويذلل صعابه، فيقبل عليه الشراح، ومنهم من يتوسع في الشرح إلى الحد الذي يجعل الإلمام بحقائق العلم أمرا عسيرا. وهكذا وصلت البلاغة نتيجة لذلك إلى أقصى ما يمكن من اختصارات وأقصى ما يمكن من شروح. ومن أوائل من اتجهوا إلى الاختصار والتلخيص الفخر الرازي (المتوفى: 606هـ) في كتابه "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"، فقد اختصر فيه كتابي "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني، وفي ذلك يقول:

«ولمَّا وفَّقني الله لمطالعة هذين الكتابين ـ أي: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ـ التقطت منهما معاقِدَ فوائدِهما ومقاصدَ فرائِدِهما، وراعَيتُ الترتيب مع التهذيب، والتحريرَ مع التقرير، وضبطت أوابِدَ الإجمالات في كل باب بالتقسيمات اليقينية، وجمعت متفرِّقات الكَلِم في الضوابط العقليَّة، مع الاجتناب عن الإطناب المملِّ، والاحتراز عن الإيجاز المُخِلِّ، وسميتُه: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز».

وظهر بجانب الرازي وفي عصره عالم كان له تأثير كبير على البلاغة العربية. ذلك العالم هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكيّ (المتوفى: 626هـ)، صاحب كتاب "مفتاح العلوم" الذي جعله أربعة أقسام: قسما في علم الصرف، وقسما في علم النحو، وقسما في علوم البلاغة، وقسما في علم الشعر. فقد أفرد القسم الثالث من كتابه للكلام عن علمي المعاني والبيان ولواحقهما من البلاغة والفصاحة والمحسنات البديعية بنوعيها اللفظي والمعنوي.. فمن خلال مجهودات البلاغيين من قبله وبخاصة عبد القاهر الجرجاني، والزمخشري، والفخر الرازي استطاع السكاكي تحقيق أمرين: أحدهما أن ينفذ إلى عمل ملخص دقيق لما نثره أولئك البلاغيون في كتبهم من آراء، وكذلك لما توصل إليه هو من أفكار، وثانيهما أن يصوغ كل ذلك في صيغ مضبوطة محكمة، مستعينا فيها بقدرته المنطقية في التعليل والتعريف والتقسيم والتفريع والتشعيب. وبهذا تحولت البلاغة في مفهومه أولا وفي تلخيصه ثانيا إلى علم بأدق المعاني لكلمة علم.

رابعا – مباحث علم المعاني

علم المعاني تنحصر مباحثه في ثمانية أبواب:

أولها: أحوال الإسناد الخبري. وثانيها: أحوال المسند إليه.

وثالثها: أحوال المسند. ورابعها: أحوال متعلقات الفعل.

وخامسها: القصر. وسادسها: الإنشاء.

وسابعها: الفصل والوصل. وثامنها: الإيجاز والإطناب والمساواة.